حكايات نبوية

١٢

يا رسول الله! طهرني....

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في الطَّريقِ إلى البَسَاتِينِ

هُناكَ أمرٌ ما تُخفيهِ (دَعْدٌ) فَيُقلِقُهَا أَكْثَر. تُريدُ النَّوْمَ لكنَّها تَتَذكَّرُ فتنتفِضُ انتفَاضةَ العُصفورِ إذا بلَّلهُ ماءُ المَطَر!

لَقدْ حَاوَلَتِ الانتِحَارَ مرَّةً ، لكنْ في اللَّحظةِ الأَخِيرَةِ خلّصَها أخوها من تلكَ الجَرِيمَة..!

تَقدَّمَتْ نحْو المَسجِدِ لتشكُو أَمْرَها إلى الشَّيخِ.. لكنْ كانَ مَعَهُ أُناسٌ كَثِيْرُونَ.. فلمْ تتَجرّأْ أنْ تكلِّمه أمامَ الرِّجالِ!

وكلَّما فَتحتِ المِذْياعَ لتسمعَ خطبةً أو درسَ وعظٍ ما.. انفجرتْ بِالبُكاءِ... وأسرعتْ إلى خارِجِ البيتِ تبكِي حالَها.. وكانَتْ تَخافُ أن يَعرفَ

بقصَّتهَا إخوتُها الشَّبابُ ، وإلاّ كانَ مآلها كتلكَ الغَنَمَة التي ذَبحَها والدُهَا في عيدِ الأَضحَىٰ!.

وهـذهِ الأيَّـامُ تَمضِـي (دعْـدٌ) لا تجِـدُ حـلاً لمشكلتِهَـا ، وكـذلـكَ فهـيَ لا تَستطِيـعُ النِّسيـانَ ولا السّلوانَ!.

تصيحُ في غرفتِهَا.. ودونِ شُعورٍ: يا إلهي! خلِّصني ممّا أنا فيهِ.. وتسمعها والدتُها وهيَ تصيحُ... فتأتِي مُسرِعَةً وتسألُها: ماذا دَهاكِ يا دَعْدُ؟

وتتظاهرُ الفتاةُ بأنَّ رأسَها يؤلِمُهَا.

ولكنْ إلى مَتَى ستَسْتَمِرُّ هذهِ المُعاناةُ؟!

وذاتَ يَوْمٍ خطرَ ببالِها خاطرٌ.. فقالتْ في نفسِهَا: لماذا لا أُصرِّحُ بمسألَتِي أمامَ الآنسةِ (لَبيبة).. فهيَ امرأةٌ واعِيَةٌ ، وذكيّةٌ ، وورِعَةٌ ، وما أكثرَ ما أَرى النِّساءَ يقفنَ معها ، ويتَحدَّثْنَ

عَنْ مشاكِلهنَّ و...! ثمَّ عاودهَا خاطرٌ آخر: ولكن أينَ سَأجدُ المكانَ المناسبَ الذي أخلُو فيهِ بالآنسةِ لأتوجَّهَ إليها بِطَلَبِ المُساعدَةِ في حلِّ مُشكلتِي..؟

ودارتْ شُكوكٌ.. وخَواطرُ في نفسها.. وتردَّدتْ لا بدَّ أنْ أطلبَ منها مَوْعِداً، وذلكَ عن طَرِيْقِ الاتِّصالِ بِهَا..

وَبالفِعْلِ أخذتْ سمَّاعَةَ الهاتِفِ، وأَدارَتِ القُـرْصَ، ثـمَّ انتظـرتْ قليـلاً، وردَّتْ عليهـا (لُؤلُؤة).

فقالت: أُريدُ السَّيِّدَةَ المُديرةَ.. أنَا (دَعْدٌ)، وهناكَ أمرٌ مُستَعْجلٌ..

فنادَتْ (لُؤلُؤة) والدَتها.. ثمَّ ناولَتها سَمَّاعَةَ الهَاتِفِ..

فقالتْ (دَعدٌ) ـ بعد التَّحيةِ وَالسَّلامِ ـ: عندِيْ

مُشْكِلَةٌ لا أستطِيْعُ بَوْحَهَا لأَحَدٍ ، وأنا أَعْلَمُ نَجاحكِ فـي مُهمـةِ حَـلِّ مشـاكِـلِ النَّـاسِ.. ، وأُريـدُ أَنْ تَمنحينِي من وَقتكِ عَشْرَ دَقائقَ لا غَيْر ، ولكنْ شريطةَ أَنْ يكونَ ذلكَ في مكانٍ بعيدٍ عن النّاس!!

وسَكَتتِ الآنسةُ قليلاً ثمّ قالت: ألا تَستطيعينَ أَنْ تأتي إلى بيتنَا يا دَعْد؟

فقالت (دَعدٌ): لا أجرؤُ أَنْ أَتكلَّمَ في أيِّ بيتٍ ، لأنِّي أخافُ أَنْ أُسْمِعَ أحَداً مُشكِلَتِي ، فأرجوكِ أن تساعِدينِي..

فقَالَتِ الآنسةُ: غَداً وقُبَيْلَ شُروقِ الشَّمسِ سأذهبُ في طريقِ البَساتين.. أتَمَشَّى وَحْدِي.. ، وذلكَ لأنَّ الطبيبَ وصفَ لِي ذلكَ ، ولا أَحدَ يَسيرُ على الطَّريقِ في ذلك الوَقْتِ ، فإنْ أَرَدْتِ فلا بأسَ بِذلكَ.

وفي الصَّباحِ البَاكِرِ قامتْ (دَعدٌ) من فِرَاشِها ،

وتوضَّأَتْ ثمَّ وَقفتْ بينَ يدَي اللهِ تُصلِّي صلاةَ الفَجْرِ.. ثمَّ بعدَ الصَّلاةِ حَمدَتِ اللهَ وصلَّتْ على نبيِّهِ المُصطفَى ، ودَعَتِ اللهَ أَنْ يُجْرِي الخَيرَ على يدِ الآنسةِ ، ويلهمهَا الحُلولَ النَّاجعةَ لِمُشْكِلَتِها المُستعصيَةِ..

ثمَّ تناولتْ قَليلاً مِنَ القَهْوةِ ، ولبستْ ثيابَها.. وتسلَّلْت من بابِ البيتِ دُونَ أَنْ يُحسَّ بِهَا أَحَدٌ من أهلِهَا ، وانطلَقتْ إلى بِدَايةِ البَساتِينِ المُحِيطَةِ بالبَلدةِ..

إِنَّهُ موقفٌ عَصيبٌ يا دَعد!!

ولمَّا التقتْ (دعدٌ) مع الآنسةِ (لَبيبة) ألقَتْ عليها السَّلام.. وسارتَا في الطَّريقِ الزِّراعيِّ.. فَقالَتِ الآنسةُ: مالي أرَاكِ قلقةً وحَزِيْنَةً؟

فَقَالَتْ (دَعْدُ): يا سيِّدَتِي ، عندِي مُشكلةٌ

تُقْلِقُنِي وتُحَيِّرُني ، وأنَا أُعانِي مِنْهَا منذُ سَنَواتٍ.. ولا أَجْرُؤُ أَنْ أَبُوحَ بِهَا أمامَ أَحَدٍ..

توقَّفتِ الآنسةُ عنِ المَشيِ، واتَّجَهَتْ بكليَّتِهَا نَحوَ الفَتاةِ وقالتْ: ومَا هِيَ هٰذِهِ المُشكلةُ المُستعصِيَة ، وفِي الشَّرِيعةِ حُلُولٌ لِكُلِّ المَشاكلِ..؟!

وتَلعثمتِ الكَلِماتُ بينَ شَفَتي (دَعد).. وقَالَتْ في نفسِهَا: يا لَيْتَني مِتُّ قَبلَ هذا ولمْ أَفْضَحْ نفسِي بِنَفْسِي!.

ثمَّ شجّعتْ نفسَهَا فنطقَتْ قَائلةً: يا سيِّدتي منذُ سَنَواتٍ أَغراني أحدُ الشَّبابِ.. وعَرَضَ عليَّ صَفقةً خاسِرةً... ووَعدنِي بالزَّواجِ.. وقابلتُهُ سِرّاً... مرّةً تِلوَ مَرَّة.. حتَّى إذا ما انفردَ بي ذاتَ مرَّةٍ وَقعَ عليَّ.. وكانَ ما كانَ! ثمَّ هربَ من البَلدَةِ إلى مكانٍ مجهولٍ.. وأنا أعلمُ أنِّي زَانِيَة.. ولكنِّي

أخافُ أن أُفضَحَ أمَامَ النَّاسِ؟

وإنَّ موقِفي أمامَ ربِّي أَصْعَبُ بكَثِيرٍ.. وهذا ما يُقْلِقُنِي وَيُخِيْفُني..

وأَطْرَقتِ الآنسةُ رأسَها قليلاً ، ثمَّ قالَتْ: لا أقولُ لكِ إلاّ أَنْ تَصدُقي التوبةَ بينكِ و بينَ الله تَعالى ، ولا تحدِّثي بذلكَ أَحداً ، وأكثِري من الاستِغفارِ والدُّعاءِ.. ، وخاصَّةً في اللَّيالِي الفاضِلةِ.. ولا تَنْسي الإكثارَ من تلاوةِ كتابِ الله تَعالى.. ففِي ذلك سُلوانٌ وخروجٌ من المُشْكِلاتِ و..

ثُمَّ دَعتِ (الآنسةُ) ربَّها أَنْ يُهيّئَ للفتاةِ كلّ ما فِيهِ النَّجاةُ والسَّعادةُ و..

وعَادتِ الفتاةُ إلى بيتِها.. بينَما تابَعتِ الآنسةُ (لَبيبةُ) السَّيرَ في الطَّرِيقِ الزِّراعِيِّ...

مُلاحَظاتٌ صَائِبَةٌ!!

ويَوماً بعدَ يومٍ أَخَذتِ الأُمُّ تلاحظُ أنَّ ابنتَها (دَعدٌ) تَتَحسَّنُ أوضاعُهَا!

لقدْ أصبحتْ تَخرجُ من غرفتهَا لتجلسَ معَ الأقرباءِ والجيرانِ والصديقاتِ، وها هيَ تأكلُ أكثرَ ممّا كانَتْ تأكُل!

ها هِيَ صحَّتهَا قدْ تحسَّنَتْ، وعادَ لونُها الطَّبِيْعيُّ إلى وَجْهِهَا!

وماذا حَدَثَ؟. تَساءَلَتْ أمُّ دعدٍ في نفسِهَا.. ثمَّ تردَّدتْ: هل تسألُها عن سرِّ ذلك التغيُّرِ المُفاجئ.. أم لا؟!

ثُمَّ قَرَّرَتْ أن لا تَسألَهَا ما دامَ في ذلكَ خيرٌ لهَا.. ولعلَّ سؤالَها عن ذلكَ يذكِّرهَا أو يحرِجهَا..!

وحتَّى أخواتُها ، ووَالدُهَا.. قد لاحظُوا ما لاحَظَتْهُ والدَتُها..

والأَغْرَبُ من ذلك أنَّها عادَتْ تُمارِسُ نشَاطَاتِها الثَّقافِيَّةَ والفكريَّة ، وخاصَّةً بعدَ انقطَاعٍ دامَ أكثرَ مِنْ خمسِ سَنواتٍ.

يا لَها مِنْ حكاياتٍ رائعةٍ ومُفيدةٍ!!

وبعدَ عِدَّةِ أيامٍ علمتْ (دعدٌ) أنَّ النِّساءَ سَيتوجَّهنَ إلى قاعةِ المُحاضراتِ في المعهدِ وذلكَ بعدَ صلاةِ هذا اليومِ.

فلبستْ ثيابَها وانطلقتْ وهيَ تحملُ دفاتِرَها القَديمةَ ، والتي كانتْ تسجِّلُ فيها كلّ ما تَسمعُ.. وَتقرأُ.

وهناكَ وجدتْ صديقاتِهَا القُدامَىٰ ، فرحَّبْنَ بها أجملَ تَرحيبٍ.

وفي الوقتِ المُحدَّدِ افتتحتْ إحدَى الطَّالِباتِ الاحتفالَ ببعضِ آياتٍ مِن الذِّكرِ الحكِيم.. ثُمَّ قدَّمتْ مُديرةُ المَعْهَدِ الطَّالِبةَ (لمياءَ) ودَعتهَا لإلقاءِ ما عندها..

وبعدَ البَسْملةِ والحَمْدِ قالَتِ الطَّالبةُ: قرأتُ لكُمْ في سُنَنِ أَبِي داودَ هذه الحِكايَةَ النَّبويَّةَ الرَّائعةَ:

عَنْ بُرَيْدَةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ:

جاءَ ماعزُ بنُ مالكٍ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله ! طَهِّرني.

فقالَ: «وَيْحَكَ ارجِعْ فاستغفر اللهَ وتُبْ إليهِ».

قالَ: فرجعَ غيرَ بعيدٍ، ثُمَّ جاءَ فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ طهِّرني.

فقال النَّبيُّ ﷺ مثلَ ذلك ، حتَّى كانتِ الرَّابعة ، قالَ لهُ: «فِيْمَ أُطَهِّرُكَ؟».

فقالَ: مِنَ الزِّنى.

فَسألَ الرَّسولُ: «أبه جُنونٌ؟!».

فأُخبرَ أنَّه ليسَ بمَجنونٍ.

فقالَ: «أَشَرِبَ خَمراً؟».

فقامَ رَجُلٌ فاستنكَههُ[1] ، فلم يجد منهُ رِيْحَ خَمْرٍ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَزَنَيْتَ؟».

فقالَ: نَعَمْ ، فأُمرَ بهِ فَرُجِمَ ، فكانَ النَّاسُ فيهِ فِرقَتينِ ، فقائلٌ يقولُ: لقد هلكَ ، ولقد أحاطَتْ به خَطِيئَتُهُ ، وقائلٌ يقول: ما توبةٌ أفضلُ من توبةِ ماعِز ، إنَّهُ جاءَ إلى النَّبي ﷺ ، فوضعَ يَدَهُ في يَدِهِ ثُمَّ قالَ: اقْتُلْنِي بِالحِجَارَةِ.

قالَ: فَلَبِثُوا ذلكَ يومَينِ أَوْ ثَلاثةً ، ثُمَّ جاءَ

---

(١) أي: شمّ فمه.

رَسُولُ اللهِ ﷺ وهمْ جُلوسٌ ، فَسَلَّم ثُمَّ جَلسَ ، فَقالَ:

«استغفِرُوا لِماعِزِ بن مالكٍ ، لَقدْ تاب تَوبةً لو قُسمتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لوسعتهُم».

فقالُوا: غَفَرَ اللهُ لماعِزِ بن مالكٍ..

مَا أَرحمَكَ يا رَسولَ اللهِ!!

قالَ: ثُمَّ جَاءتْهُ امرَأةٌ من غَامدٍ ، من الأَزْدِ ، فقالتْ: يا رسول الله! طَهِّرنِي.

فقالَ: «وَيحكِ ، ارجِعي فاسْتَغْفِرِي الله ، وتوبي إليهِ».

فَقالَتْ: أَراكَ تريدُ أَنْ تَرُدَّنِي كما رددْتَ ماعزَ ابنَ مالكٍ؟!

قالَ: «وما ذاكَ؟». قالتْ: إنَّها حُبْلَى من الزِّنَى.

فَقَالَ: «زَنَيْتِ» ؟

قالَتْ: نَعَمْ.

قالَ لَها: «حتَّى تَضَعِي ما فِي بَطنكِ».

فلمَّا وَضَعَتْ ، أتَتْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَتْ:

لَقدْ وَضَعْتُ ، وهذا ابني يَرضَعُ..

فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إذاً لا نَرْجِمُها ، وندعُ ولدهَا صَغيراً ، ليس لهُ مَنْ يُرضِعُه».

فلمَّا فَطَمَتْ غلامَها.. أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَتْ..

قَالَتِ الآنسةُ تَعليقاً على الحِكَايَةِ: ما أَعْظَمَ رَحْمَةَ الرَّسولِ ، حتَّى مع الزِّنى هو رَحمةٌ مُهداةٌ.. فصلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم ، بينمَا كانتْ (دعدٌ) تُتَمْتِمُ بِكَلِماتِ الحَمْد لله.. والشُّكْرُ لهُ على أنْ فَتحَ بابَ التَّوبةِ.. حتَّى للزُّناةِ... والعُصَاةِ..

والحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ